

جمالية الغموض في ديوان "مقام البوح" لعبد الله العشي

طالبة دكتوراه: فاطمة الزهراء حمديس

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب و اللغات

جامعة بسكرة (الجزائر)

Abstract:

This research sought to delve into the mystic experience of the great poet Abdullah El Ache by shedding light on his poetic work "Makam El Bowh". This modern work, which is described as a poetic experimentation, is resulted from his mystic experience, more, from what is known as mystic enigma. In fact, his work is the interpretation of a tremendous poetic esthetics created by various elements such as ambiguity and clarity, can be known only by mystic poets. These two things, in addition to the use of symbolism, helped the poet to form and write his incomparable experience, in other words, his state of mind.

Key words: ambiguity, symbolism, mystic poetry, mystic experience, experimentation.

ملخص:

تسعى الدراسة إلى ذرف تجربة الشاعر "عبد الله العشي" من خلال الوقوف عند مشارف ديوانه "مقام البوح"، الذي يلامس وهج الحداثة بالاعتراف مما تحبل به التجربة الصوفية، ولعل جماليات الغموض كحمول صوفي خطوة حثيثة في مسار التجريب الشعري المتجاوز للمألوف بشطح صوفي يقفز على حبل الستر والكشف مولدا شعرية موعلة في الغموض والجمال، معتمدة على لغة الإشارة للوصول إلى حبر التجلي والبوح الذي يكتب به الشاعر تجربته.

الكلمات المفتاحية:

الغموض، الرمز، الشعر الصوفي، التجربة، التجريب.

توطئة:

بعد الغموض⁽¹⁾ منبعاً للإثارة الروحية واللمسة الوجدانية باعتباره سبكاً جمالياً ملازماً للشعر العربي والغربي، خاصة منه الشعر الحديث الذي نزع إلى طلب المغايرة والاختلاف بهمس نشوة "الغموض كأخص خصائص الحداثة الشعرية"⁽²⁾ أين يتسامى الشاعر بالروح إلى عالم خيالي ميتافيزيقي غير هذا العالم الأرضي.

وليس النص العرفاني بمنأى عن الشعرية الحداثيّة، والاهتمام بتمتع الشعر الصوفي عن الإبانة والوضوح نابع من كون "الغموض هو حالة محايدة للتجربة الصوفية ذاتها"⁽³⁾ إذ إنّ وعي الشاعر المعاصر بخصوصية تجربته دفعه إلى الاعتناق من دنس الواقع بمعاينة الخيال، والانغماس في فيوض التجربة العرفانية، عازفاً على أوتار التصوف الرثة ترانيم الحداثة بمختلف نوطات التجريب⁽⁴⁾، كذا شق حجب الستر المسيّج برموز عدّة يكتنفها الغموض وبهناك متنوعة تثير أذواقنا التي اعتادت طعم الوضوح بصورة شكّلت صدمة إزاء القصيدة المعاصرة، وحالت دون الاستمتاع بجاليات هذا النسق.

فكيف وجد هذا الشعر الصوفي الغامض صدى وتجاوب لدى القارئ المعاصر؟

لعلّ "المتلقي الفطن والواعي يرى في هذا العنصر القار جالاً يثيره ويستثيره، بل يزرع فيه تلك الرغبة الإبداعية، التي تدفعه إلى التوغل في سراديب النص الإبداعي، فيستحضر جل أدواته النقدية ليخوض مغامرة الكتابة الجديدة، ويعيش حرارة البحث والكشف، كالتي عاشها الشاعر لحظة التوهج والكتابة الأولى... فالغموض ظاهرة جالية"⁽⁵⁾ في الشعر الحداثي طالما أجاد الشاعر استنساخها في تجربته الشعرية"⁽⁶⁾.

واستثارة قضية الإجابة كفيلاً بث شرح الإبهام الذي يحجب الرؤيا ويخلّ بالفهم وهو ما دفع النقاد إلى إسالة حبر برزخي بين الغموض⁽⁷⁾ Ambiguity و الإبهام⁽⁸⁾ Obscurity "فنحن نستخدم في الأغلب لفظ الغموض و نادراً ما نستخدم لفظ الإبهام، مع أنّ الشيء المهم المستغل ليس هو دائماً بالضرورة الشيء الغامض، و قد سبق أن حلل أمبسون⁽⁸⁾ Empson william صفة الإبهام فهو عنده صفة نحوية بشكل أساس، أي ترتبط بالنحو و تركيب الجملة، في حين أنّ الغموض صفة خيالية تنشأ قبل مرحلة التعبير المنطقية، أي قبل مرحلة الصياغة اللغوية و النحوية"⁽⁹⁾ كرونق إبداعي و مزينة لسانية بحجة تضيي على الشعر سحراً جالياً قاراً في ذاته و لذاته منذ عصور غربية غابرة ذلك أنّ " المفهوم اللاتيني لمعنى الغموض في الأدب، مرتبط بالدين و التصوف و الميتافيزيقا، و المفهوم الإغريقي قد نبع من الطقوس الدينية السرية، و لكنه اكتسب أبعاداً جديدة مرتبطة بالإثارة الفنية و الحكمة الدرامية"⁽¹⁰⁾.

تضرب ظاهرة الغموض بجذورها في أعماق الأدب العربي القديم فقد يُؤقَى بما استغلق على الفهم لتعظيم الشيء و تخفيته عند المتلقي أو لأن فيه مزية ليس للوضوح فيها ضرب كما نحي "عبد القاهر الجرجاني" في قوله: "و من المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له و الاشتياق إليه و معاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى، و بالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل و أطف و كانت به أضن و أشغف"⁽¹¹⁾ و قد ذهب "أبو إسحاق الصابي" إلى رأي مماثل حين قال أن: "الحسن من الشعر ما أعطاك معناه بعد مطاولة و ماطلة، و الحسن من النثر ما سبق معناه لفظه"⁽¹²⁾ في حديثه عن ركون الشعر للمعنى المعنى الملمغز في مقابل المعاني النثرية الجاثمة تحت وطأة السداجة اللغوية الناجزة، مما يعني أنّ العرب قديما أدركوا أهمية الغموض في الشعر الذي يمثل لبّ الإبداع عند كل من: المتنبي، البحري، المعري، أبو تمام، وأبو نواس... "فلم تكن تهمة الغموض التي ألصقت بالشعر العباسي الجديد غير محاولة لطمس ملامح التغيير و دلالات التحول في المجتمع

تسعى سلطته إلى المحافظة على ثباتها عبر كل مؤسساتها و تجلياتها الثقافية و الجمالية"⁽¹³⁾.

و هذا لا يعني أنّ الأدب العربي القديم قد احتفى بهذه الظاهرة إجمالاً فمن التقاد من وقف من الغموض موقفاً رافضاً و ذهب في إثر الوضوح إلى القول أن "من شروط الكلام أن يكون المعنى واضحاً جلياً لا يحتاج إلى فكر في استخراجه و تأمل لفهمه، و سواء كان ذلك الكلام الذي لا يحتاج إلى فكر منظوماً أو منثوراً"⁽¹⁴⁾ كما ذهب إلى ذلك "ابن سينان"، و اتفق ما قال به "حازم القرطاجي" مع هذا في إيضاحه مقاصد الإغماض إذ يرى أنّ "غموض المعاني منها ما يعود إلى المعاني نفسها و منها ما يرجع إلى الألفاظ و العبارات المدلول بها على المعنى و منها ما يتعلق بالمعاني و الألفاظ معاً"⁽¹⁵⁾ فغموض المعنى لا يجيد عن هذه الزوايا حسب نظرة "حازم" لهذه المسألة، و قد عمل على توضيح الأمر بالوقوف عند أساليب إمطة لثام الغموض في المعنى باعتباره عائفاً أمام تأدية النص الشعري لوظيفته التخيلية.

يبين الشعر القديم مما ذكر آنفاً بميله "لطابع الوضوح و السهولة، لأنه يستخدم لغة محددة الأبعاد منطقية لا يميّزها عن لغة النثر إلا ما فيها من ارتباط بالأوزان العروضية"⁽¹⁶⁾ في حين يلتحم الشعر الحديث بلحاف الغموض، بالرغم من غلبة عرامة النقد التقليدي الذي يزنح تجاه الوضوح و لغة المنطق، فهيم شعبة من النقد العرب الغموض على أنه مقوم جوهرى و جبالى للشعر لا يضير البيان بل يحققه، إلا أنّ هذا اقتصر على فئة لا تتعدى أنامل الأصابع تحاكي موقف جلّ النقد و الأدباء من الشعر الحديث و منهم "بول فاليري" الذي أصرّ على أن: "الغموض الشديد هو الأصل و أنّ الكشف و الإيضاح قاتل للعمل الأدبي"⁽¹⁷⁾.

و ذهب "أدونيس" المذهب نفسه حين فيُصل بين الإيهام و الغموض المسند إلى الشعر في قوله: "الشعر تقيض الوضوح الذي يجعل من القصيدة سطحاً بلا عمق، الشعر كذلك تقيض الإيهام الذي يجعل من القصيدة كهفاً مغلقاً"⁽¹⁸⁾ و لم يكن أقلّ طلباً للستر بعد ما عدّ الإغراض "قضية إبداعية و لغوية و معرفية، بمعنى أنه أولى أهمية خاصة للبعد المعرفي و الجمالي للنصّ الشعري فهذه الأبعاد هي التي ولدت الغموض و جعلته صفة إيجابية"⁽¹⁹⁾ استقطبت الناقد "محمد الهادي الطرابلسي" إلى خوض غمار دراسته كإحدى مظاهر الحدائث في الأدب إذ يرى إنّ الغموض "ملازم للشعر و يؤلّف ظاهرة في شعرنا الحديث تشبه ظاهرة الوضوح في شعرنا القديم و ينتمي إلى أنه ضروب عدّة، أكثرها ضرورة للشعر أبعداها عن الإيهام و أقربها إلى البيان"⁽²⁰⁾.

و ليس بعيد عن هذا الحديث درج "محمد بنيس" على شظايا نوعيّة في نقلة شعرية تكبس زرّ "بلاغة الغموض" ضمن مستويات متعددة: دلالية، نحوية، إيقاعية، و معرفية... تقرّر "بأنفجار لغة النص و خروجها عن القوانين المقيّدة للغة اليومية العادية"⁽²¹⁾، كما انفجأت "فريال جيوري غزول" على ثبج الحدائث الشعرية قريئة الغرب حين سلّمت "بشعرية الغموض كخاصية شعرية أصيلة و خاصة حدائثية كبرى"⁽²²⁾ تمثّل أمامنا كعنصر جمالي يُفضي تكديسه إلى حالة إيهام منافية للشعرية الحقّة التي تُثار في خضم الحدائث شبه تشويش على القارئ بتحطيم الألفة و بعث الاضطراب و القلق و حالة العبث و اللامعقول و اللامنطق و اللامعنى على جسد القصيدة المعتمدة في ماء التجربة الصوفية فالأم يعود الغموض الذي يلقّف الشعر الصوفي؟

دواعي الغموض في الشعر الصوفي المعاصر:

يبدو من الضروري تحليل و تحديد كنه الغموض ذاته، و التنقيب عن الكبسولة الجمالية التي تجعل الغموض في الشعر الصوفي إشعاعاً ماسياً ملازماً لطبيعة الإبداع في مدّه و جزره و التي تعود إلى "رفض التجربة الصوفية الدائم للساند و المألوف و سعي التجربة الصوفية للكشف عن باطن الوجود و جوهر الكون، وأن عناصر الوجود عند الصوفي إشارات و رموز، و الرمز بطبيعته غامض لأنه يتعدّى إطار العقل و الحدس"⁽²³⁾، و وفقاً للهوس الحدائثي رفث الشعر المعاصر للغموض نظراً "لأسباب عديدة يأتي في مقدمتها غموض العملية الإبداعية، و طريقة استخدام اللغة بوصفها سفينة الشاعر في مسيرة كشفه الأبدية، تناسل المعاني و ذلك عن طريق انبجاس النص و افتتاحه على المجهول و الثقافة و المعرفة، بوصفها رافدين كبيرين في تشظي ظاهرة الغموض على جسد و روح نص الحدائث. و تلعب الصورة الشعرية إلى جانب هذه العوامل دوراً رئيساً في استفحال هذه الظاهرة كي تتراءى له السبل لاختراق المجاهيل"⁽²⁴⁾ فالدفقة الشعورية تزجّ بالشاعر في جوّ عائم في الضبابية و التوتر و الهيجان أين

يفقد مقاليد التبيين والتمييز، لأنه بصدد الخلق وما يراد الكشف عنه غامض وغريب، حتى "ليصبو إلى أن يكون حيا ولهذا كان له الحق في أن يكون غامضا مترددا، لا منطقيا"⁽²⁵⁾.
 ذلك كله كان دافعا لشاعرنا "عبد الله العشي"⁽²⁶⁾ إلى القول أن: "غموض مطلع القصيدة مناتت من طبيعته... وكيف يمكن للشاعر أن يقبض على هذا الذي يأتي ولا يأتي"⁽²⁷⁾ إنه المولود القصيدة الفريد البكر، والغامض لغموض ميلاده.

لقد أصبحت تجربة الشاعر المعاصر على قدر من التعقيد والعمق بحيث لا يمكن الإفصاح عن كل جوانبها وأبعادها وإثما تظل في زواياها خبايا تأتي الظهور مُشكلة ألوانا من الغموض.

ألوان الغموض في الشعر المعاصر:

يُميّز "حسين مروة" بين لونين من الغموض "أحدهما مقبول ومشروع، وهو بمثابة شرط من شروط الأدب والفن، وذلك لأن الصورة الفنية غامضة بطبيعتها وهي لا تقدم مضمونا بطريقة مباشرة واضحة بل عن طريق الإيحاء، أما النوع الآخر من الغموض فهو ذلك الذي يفتعله الشاعر افتعالا عن جهل أو عن تصنع"⁽²⁸⁾ مما سبق يمكن التفريق بين نوعين من الغموض: غموض شفيف موح؛ يتم عن عمق التجربة وسرمدية الخلق الذي لا يمكن اصطياده في شبك الألفاظ لامتراجه بطبيعة الشعر في بوتقة التجريب.

وغموض كثيف مردّه قصور اقتناص قناديل الحدائث الهائمة في دهاليز التجربة "فأحيانا يكون الغموض مصدرا للإثارة الروحية والنشوة الوجدانية في المضامين الميتافيزيقية والصوفية، وأحيانا أخرى يصبح الغموض منبعا لسوء الفهم والمفارقات الكوميديّة والمواقف الساخرة، وأحيانا تالفة يتحوّل الغموض إلى مجال للرياضة الذهنية التي تجبر القارئ أو المشاهد على مشاركة الأديب في البحث عن الحقيقة وسط المتاهات المظلمة والطرق المسدودة"⁽²⁹⁾ وهذا يعني إمكانية الفصل بين الغموض الطبيعي الفني وغموض الإبهام وغموض التعمية والإلغاز على التوالي.

و لعلّ "وليام امبسون" في تمييزه بين ضروب الغموض الجيدة والردئية قد أشار إلى أن الغموض يكون "محترما مادام يسند تعقيد الفكر أو لطافته أو أكتنازه، ثم هو لا يستحق الاحترام إن كان وليد ضعف أو ضحالة في الفكر و يبهم الأمر دون داع"⁽³⁰⁾ وإيراد هذه الضروب يجعلنا على درجات من الغموض "فقد يكون الإغراض قريبا يمكنّ الغير من التعرف على المقصود في سهولة ويسر، وقد يكون الإغراض بعيدا فيعتت في إدراك المقصود، وقد يكون أبعد وأبعد فيخوّج إلى التفسير والتأويل وربما بلغ الإغراض مرحلة الإلغاز فيصّد العقل صدّا عنيفا، ويجول بينه وبين الفهم المتقع ولو على شبه الترحيح"⁽³¹⁾.

بعد هذا الطرح يمكن الحديث عن تجربة الشاعر "عبد الله العشي" الذي آثر رشف القطرة التي أفاضت كأس الحداثة فعندما تلبس الذات و اللغة و الرمز و التجربة رداء الغموض والشطح الصوفي، تتبنى القصيدة أسلوباً لا يعوزه العنصر الجمالي الذي يترك المتلقي يخلق في أسرار التأويل و يتجزع تبعاته بتعدد الرؤى.

أنواع الغموض في شعر عبد الله العشي:

إنّ إطلالة شغوفة على قصائد الشاعر المبتوثة في الديوان تجعل القارئ من الوهلة الأولى يحكم باتمائها إلى الغموض الصوفي الفتي، لكن بعد قراءة معقّمة نستطيع استجلاء كشوف من الغموض أنبأ بوحيا قول صاحب الديوان: "إن غموض مطلع القصيدة متأّت من طبيعته، فهو أوّلاً بداية العلاقة بين الشاعر و اللغة، و هو ثانياً قمة التجربة الوجدانية و هو ثالثاً انفجار ضدّ إرادة الشاعر، يندلع من أعماقه حاملاً ركاباً من المشاعر و الهواجس و الأفكار و الرؤى و الخيالات تحاول كلّها أن تتجسد في اللغة باللغة، و هو إلى جانب ذلك وليد لحظة لما بين، ما بين الوعي

و اللاوعي، ما بين الصحوة و الحلم، ما بين بقظة الروح و حرارة الوجدان، هذه كلها تجعل مطلع القصيدة مجللاً بالغموض، عصياً على الفهم"⁽³²⁾ لكون الشاعر المعاصر ليس إلا ذاتا تبحث في أعماقها عن لحن مفقود في سراديب الغموض:

● غموض ذاتي حيوي يجسد طبيعة الحياة في غضارتها و نضارتها، وذلك في شفافية تجذب وتستميل.

● وض ذاتي متعال عن الوجود تعالياً فلسفياً صوفياً يتسامى بالروح والعقل فوق الأصداء المادية.

● وض ذاتي فقد الوعي بذاته وبالحياء، فهو في شطح رمزي متوالد ومتداخل ومتناقض بين الرموز والدلالات"⁽³³⁾.

هو إذن الإيهام اللصيق بطبيعة الذات والشعر والتجربة في نفي للوضوح والبوح كخاصية تجرد الأشياء من مثالياتها وجمالها ، فالمسألة هي عدول عن الإبانة بخلق جو ضبابي قار في ذات شاعرنا المنطوية على كل مبهم مجهول، ليصور خلجات النفس غير المدركة بصورة كثيفة المحتوى لعلّ صداها يرتسم بريشة التصوف.

1- الغموض الذاقي النفسي:

يلتمس القارئ في النصوص الشعرية الآتية: تجاوب، افتتاح، حرائق الفتون، لا تصمتي بهجة، نشيد الوله، الغياب، التأويمنولوجا داخليا واضحا يبدأ من تجاوب حدس غامض يرتقبه الشاعر هو "اسم القصيدة" الذي تبدى رؤاه الحلمية و تختفي في اتحاد حلولي شقّرت مغاليقه بلغة الصمت الغامضة:

كانت على رمل الشواطئ ترقب اسما غامضا...

يأتي من المدن البعيدة...

كي تراه وكي يراها." (34)

إلى أن يقول:

أحو المسافة بيننا،

حتى تحل بدايتي

في متهاها

.....

.....

(35)

.....

ذلك أن إصغاء المبدع لأناه الأخرى "صوت القصيدة" الذي جعله الشاعر المعشوق ذاته نيابة عن الذات الإلهية، هو محاولة لفهم النفس البشرية وسط تداخل النوات و التي تعتبر ضرب من المستحيل لما يكتنفها من غموض ينعكس على النص الشعري في صراخ الشاعر المنقطع حد السفر إلى عالم آخر.

صرخت،،

صرخت،

صرخت

واقطع الكلام...

.....

.....

وسقطت..

(36)

مغشيا علي...

يتواصل الجو الشعري الضبابي مع قصيدة "افتتان" ليبيدي لنا وجع الكتابة و أرق العملية
الإبداعية وتشظي حقل العبارة:
حين يومض في الروح ذلك البريق
يترجل قلبي عن صهوة العمر...
كي يستريح بظلك...
من صهد السنوات.
و يفتح باب العروج إلى قبة...
في الفضاء السحيق.⁽³⁷⁾

القصيدة تجعل القارئ يتيه في غياهب غموض التصوير الفني، كأهـى صور التجلي الإلهي في
الموجودات بريق نصي يرسم القلب فارساً شاعرياً يترجل عن صهوة العمر أو الجواد الذي يمثل الوعي،
ليستريح من لفح الشمس أو صهد السنوات و أوجاع الواقع بظل المرأة الشجرة أو القصيدة، كرموز
دال على صورة من صور الذات الإلهية التي وظفها "ابن عربي" لتفسير "وجود واحد يتكاثر في الصوّر
الظلال"⁽³⁸⁾:

تخرج من صورة صورة
و تعود إلى صورة صورة
صور تتوالد...
أو صور تتلاشى...⁽³⁹⁾

فالصورة فضاء يجمع بين الغموض و الوضوح و أصداء المفارقة لا للبوح بل للغياب في عوالم
اللاوعي بعروج ساوي في الفضاء السحيق و الارتشاف من وحي الإبداع.

حين يومض في الروح ذلك البريق...
تعود المسافة بيني و بيني
و تعقد بيني و بيني السلام⁽⁴⁰⁾

هنا يبرز غموض رحلة الشاعر فهي رحلة إلى داخل الذات و محطة هذه الرحلة الستر:

واش...
تتر..

(41)

.....

فهو احتفاء بدفء القصيدة كبديل عن دفء الطرف الآخر، الرموز إليه بالمرأة.

تتواصل الرحلة الغامضة من "الافتتان" إلى "حرائق الفتون" مسكونة بشغف السمو إلى نور نار الفتون أين تتقصى الذات أعماقها الدفينة حيث الفعل الشعري بداخل الشاعر كالنار الحارقة "و النار ظاهرة يعترتها الغموض في كثير من الأحيان عندما يتخذها الشاعر دليلا على مكاشفة الذات و مباغنة الأنا"⁽⁴²⁾.

لنتجلى بعدها حركة التماثل مع الذات كدلالة على التوتر النفسي، ذلك لأن العقد ذات الصلة بالنار عقد تثير الأعصاب

و تبعث على الشعر في الوقت نفسه:

مدي قوامك حول ساريتي...

ليرفع الشراع لرحلتي الكبرى...

وتنفتح البحور.

و تمر أحصنتي إلى جزر الخرافة...

و الزرجد و الزمرد و البخور.

مدي نشيدك حول صمتي...

كي تبوح الأجدية بالحرائق و المواجه...⁽⁴³⁾

إلى أن يقول:

أدنو من غموض الغيب...

أبصر ما تحقني عن حدود العين...

أدخل في اليقين⁽⁴⁴⁾

ثم يقول في آخر القصيدة:

أحبيتي

هل كان مغشيا علي...

فصحت على إيقاعك القدسي ...

ذاتي⁽⁴⁵⁾

يبدو لنا نتاج إتحاد الذوات و ما تمخض عنه بمثابة مشهد لصراع مباشر بين الإنسان و معتقداته هذا الصراع الذي غلّف بالغموض، لتشع حرائق الفتون بجمالية تعترتها سمة الانتشار الدلالي حول وهج الذات و نار الأنا، و أمام هذه البوابة يتشظى حشد من الأنات الهاربة و يحس الشاعر بحرقه وفتنة، مرتبطة بعملية ولادة الشعر الصعبة، لذلك حاول الشاعر أن يقتحم ذاته و يكشف عن غموضها بكسر حاجز الصمت.

ففي قصيدته "لا تصمتي" يحس القارئ بشيء من الإلغاز الذي يفضي إلى التعمية إلا إذا ربطناه بالعناوين السابقة، فإنه يتواصل مع حلقات هذه الحكاية الشعرية ليقول لنا أنه أمر للروح و نداء من الأعماق و دحر للصمت.

قولي...

لا تصمتي أبدا،

فكل دقيقة عندي بعام.

لا تصمتي...

كل الثمار على حقولك أحرف،

و يداي أعرف بالكلام.⁽⁴⁶⁾

العبارة الأخيرة يلفها الغموض فالكلام يكون باللسان حتى يكون ما نقول معقولا، أما إذا كان مصدره اليدين فهذا أمر غير معقول، و غامض يدعو إلى تراسل الحواس في جمالية شعرية و باعتراف صريح مفاده أن القصيدة هي بطاقة هوية الشاعر و جواز سفر لهجرة كبرى تتأبى الترحال. أنت ابتداء الهجرة الكبرى...

إلى ماء الغمام.

نامي إلى جنبي...

سأحرق هذه الأشياء

في جسدي...

لأختصر المسافة بين روحينا...

و يشملنا السلام.⁽⁴⁷⁾

أما إذا انتقلنا إلى قصيدة "بهجة"، فإننا و من العنوان نحس بفرح يعتري ذات الشاعر لعل سببه تحقيق هدف منشود.

نهر من البهجة

ينثال من روحي

يا ليت لي حجة⁽⁴⁸⁾

إلى أن يقول:

يا ليت لي بوحك

طيرا على شفتي

يمتاح من صدرك

يسقي ظمأ لعتي

يا ليت لي...

يا ليت...

يا ليت لي...

يا ليت...

(49)

.....

فالبهجة عند شاعرنا من روحه لكنه لا يمتلكها و هذا غموض ما بعده غموض فهو يملك ما لا يملك، حاله كحال الصوفي في لحظة ما بين الكشف و الستر، إته يّوحد بين ذاته و اللغة و ينتظر من جمالية البهجة أن تسقي " الضمأ معادلا سيميائيا يعبر عن محمولات دلالية غامضة مشحونة بفيض من الرؤى... علّه يبحث عن من ينتشل اللغة من ركودها و ينتشل المثقف من صمته أو ربما يشير إلى رعب الفشل"⁽⁵⁰⁾، وكلها محمولات مرتبطة بالكبت الداخلي في الذات الإنسانية الغامضة.

ووقفنا عند قصائد "نشيد الوله" "الغياب" "شتات" يجعلها و من العناوين عبارة عن صرخات الذات في جو غامض، دامس يتيه في تيه التأويه إذ يقول في "نشيد الوله":

آه...

من دل قلبي إلى البحر...⁽⁵¹⁾

و يقول في "غياب":

آه ... يا مر الغياب⁽⁵²⁾

أما في "شتات" فيقول:

آه... كم يحرق صدري

وهج الغيبة...⁽⁵³⁾

فالتأويه حالة شعورية تحسرية ينشد من خلالها الشاعر و له الكتابة الغائب للعودة بعد أن طال شتات الروح و لا يخفى ما " لثنائية الحضور و الغياب في رحاب التوجه الصوفي من علاقات خفية و معان إيحائية موعلة في الحفاء و الغموض... تعكس رؤيته الشعرية بطريقة خاصة تسهم في إثراء تجربته الشعرية ، و تحقق جمالية قصدية"⁽⁵⁴⁾ نبصرها تحت عتبة التأويه و المونولوج الداخلي المنبعث من ثورة في ذات الشاعر؛ إته يبحث عن ذاته في ذاته، و لغموض الذات الإنسانية انعكس الغموض على قصائد شاعرنا "عبد الله العشي".

2- الغموض الناتي الأسطوري:

يخفل ديوان "مقام البوح" بمجموعة من الأساطير الأجنبية التي أذاعت نوعا من الغموض في قصائده، كما في قصيدة "قمر تساقط في يدي" التي يقول فيها:

مزي على جفتي...

كي أحلم

كي أفتح الشباك نحو حضارة أخرى

و أكتشف المسالك و الممالك و الأمم⁽⁵⁵⁾

إلى أن يقول:

مزي...

لتكمل سحرها هذه العبارة في في...

عرسا...

وتمل في بلاغتها القصيدة

وتفيض من مجد البذار الخصب

رعشتها الجديدة.⁽⁵⁶⁾

إرادة الشاعر هنا تختلف عن إرادة الصوفي لأنه في هذا المقام يروم القصيدة ومن خلالها سحر العبارة، ولعلها هي القمر المنشود الذي جعلنا نعتقد أنه سقط بين يديه كقطر غيمة من الأساطير المشتبكة الدلالة؛ من "حتحور Hathor" ربة القمر في الأساطير المصرية القديمة- التي تجمع بين الإخصاب و منح الروح لمن فارق الحياة- كحال القصيدة روح الشاعر، إلى "ديانا Diana" إلهة القمر عند الرومان، و أصلها روح شجرة تشع دلالتها في قول الشاعر:

هذا عناق العاشقين:

شجر يحاوره شجر

و طفولة تمضي...

لتتسع الكواكب حول ذاكرتي...

و يمحي العمر⁽⁵⁷⁾

أوهي "كوبولاكسس هكي" الطفلة الإلهة التي بُعثت قمرًا لتمحو خطيئة إعدامها، أم هي "سلنه Sélénée" ربة القمر و مانحة الراعي "أنديميون" حبيبها الخلود بنوم دائم لا نهاية له (مزي على جفتي.../ كي أحلم)، أو هي "لونا Luna" حاملة المشعل (و اشتعلت أغاني الروح..) أو هي

"سينثيا Cynthis" أو "فبه Phébé" أو كيلاً Quilla أو "نيكال Nikkal" أو "هينا" (58) فغموض استدعاء هذه الأسطورة - القمر - أدى إلى تعدد الدلالات وفتح الباب أمام مختلف التأويلات المعقودة و تضاعف لغة الاستفهام و التعجب التي تدفعنا بدورها إلى عتبة شعرية الغموض. أما قصيدة "العودة من وراء الماء" فتبعث فينا من الوهولة الأولى مغامرة السندباد البحري الشبيهة و رحلة الصوفية:

أنا جئت من مدن الخرافة...

مثقلاً بحطام أصنامي

و أوثان الغواية...

فافتحي للعشاق المعبد (59)

تمثل العودة من وراء الماء العودة من وراء البحر، و لدال البحر تأويلات عديدة بثت إشعاعاتها الرمزية في مساحة النص أو الديوان برمته، هذا الأخير هو رمز للأسرار و الأعماق الغامضة، فضلا عن كونه سفر ذهني و اغتراب و عزلة و تصوف و امتلاك للذة المعرفة في الغامض و اللامعقول.

3- الغموض الناتي الفني:

إنّ تماهي ذات الشاعر مع ذات ثانية هي القصيدة باعتبارها مبعثا فنيا لا يشكل حالة انفصالية بقدر ما يتأس و حالة الحلول الصوفية، التي تتم عن غموض في الذاتين معاً؛ أين تزاوجت على الشاعر "أجراس الكلام" فبات لا يسمع إلا صدى "القصيدة"، وهو يريد التوحد بها للهروب من صمت العالم. حياة الشاعر تكون بالشعر لذلك نجده يناجي رمز المرأة المتلبس في مجسمات مختلفة: الكلمة الشعر، و القصيدة باعتبار "التجربة الصوفية المعاصرة هي محاولة لتحقيق الكمال الفني" (60):

حين أكون يا أميرتي...

في قمة العشق...

أضيق العبارة...

والنحو والعروض والمجاز والفصاحة

كأنما تبيست على شفاهي...

حدائق الرموز والإشارة. (61)

وقفة على تخوم عنوان "القصيدة" تدفع القارئ إلى اتخاذ في حضرة الإبداع مجلساً، ينتشل موضوع القصيدة نفسه من الغموض، و من زخم الكلمات والعواطف التي رُجّح بها في إكسبير الغيبية والصحو والمعلنة عن ميلاد أحرف بوح حارقة احتمى من لفحها الشاعر "باحتيال الأجدية":

وترقّ هاء كالفراشة
 كي تحطّ على التدى...
 وتبوح بالأسرار...
 بوح الباء تكشف سرّها للتون
 ألف ونون
 عين ونون
 نون ونون
 هذا احتفال الأبدية...
 بالغواية والفتون⁽⁶²⁾

إنّ أنسنة الأبدية تلهمنا تأكيداً من أن اللغة كائن حي يجعلنا الفنان والأديب والشاعر نحس بحياته المفرغة من التجربة الصوفية، وفق معادلة حديثة تستجيب لتصورات الشاعر المعاصر "فالمرحلة المعاصرة ليس لها مصطلحات خاصة بها باستثناء ما أدخله الشعراء في خطاباتهم الشعرية من رموز وإشارات تتقاسمها تجربتان، تجربة الكتابة الحداثية وهي تجربة تنحو نحو تجردنا رؤيويًا، وتجربة الكتابة الصوفية، وهي تجربة فنية مستمدة من التجربة السابقة"⁽⁶³⁾ تمتطي دوالها الشاردة صهوة الرمز والإيهام، في ثورة على الوضوح اتجاه متاهات الغموض واستسرارية الأسلوب القرآني الجمالية و كإحالة على صوفية ابن عربي و الحلاج.

تتجلى قصيدة "أيها الشعر" مولوداً جديداً مجللاً بغموض التناص الأدبي في حضرة الشعر المعاصرة و"مذكرات الصوفي بشر الخافي" لصلاح عبد الصبور في قول الشاعر:

هي ذي في حضرة الوادي تجلّت
 فأخلع النعل..
 فولاتك تدنو منك.⁽⁶⁴⁾

تبوح الأبدية بسحر الكتابة المنتظمة في صورة المرأة القصيدة كعادل موضوعي يحمل مكونات شعرية تلجأ إلى حضن الغموض الفني البحث.

4- غموض ذاتي صوفي:

للصوفية منحى خاص في طرق أبواب الكلام كأؤل ما يكون البوح المفعم بنبذة المكالفة
 يقول الشاعر:

أوقفتني في البوح يا مولاتي،
 قبضتني، بسطتني،

طويتني، نشرتني،

أخفيتني، أظهرتني...

وبحت عن غوامض العبارة⁽⁶⁵⁾

إنها الحركة نحو الأعماق التي تفضي بجسد القصيدة على ساحل السحر والستر والإبهام، عند غلوها في التجريد الفلسفي الغريب والمنفصل عن حركة الواقع بغوامض العبارة ولغة الإشارة في حضرة البوح الكبرى وأبهى المقامات وأولها "مقام البوح"؛ العنوان الرئيسي للديوان الذي أفرغ فيه الشاعر من ذاته أنثى يخاطبها ليضل القارئ ويؤهمه غير المعنى المستبطن.

وكأن الشاعر يميلنا في قصيدة "أول البوح" الموصولة بـ"السر" الذي هو عكس الإفصاح على مستودع الغموض في صياغته لهذا العنوان ويوهنا أنه صوفي لا يكشف ولا ييوح لحظة اقترابه من البوح.

ما الذي أيقظني يا رب حتى...

صرث:

روحي روحها...

ثم صارت:

روحها روحي، حتى

كشفت المحبوء سره؟⁽⁶⁶⁾

فالشاعر ينشد أعلى مراتب المقام ليلعب درجة الحلول التي كان يرومها منذ أول البوح، وهو يرمي إلى ما قاله الخلاج "روحي روحه وروحه روحي نحن روحان في جبة واحدة"، و البوح موت في المنطق الصوفي لذلك فهو لن يسميه في قصيدة "مدح الاسم" التي تشع بغموض كثيف من أول وهلة يقول:

ربما استعصت على البوح استعاره

إتني أعرفه...

ربما تمنعني عنه العبارة

ربما تعجز ألفاظي

ولكن...

في دمي من لحنه ألف قتاره

ربما تدركني الرؤيا

فترتد إلى حلقي العبارة⁽⁶⁷⁾

دعوة الاتحاد و الحلول تشي بغموض سرمدي أضفى على الديوان مسحة جالية و سمة حدائبة تحُول دون كشف السر إلا للحبيب الأمين.

سأستيه...

ولكن

سوف لن يسمعه...

أحد متي سواك.

فاسمعه:

....."

.....

(68) "

.....

المصادقة على الديوان بختم نقاط الحذف يترجم غموضا عند القارئ لا يبين إلا للصوفي العارف "فالنص الشعري استنادا إلى هذا إنما يُعبّر عن شهوة البوح باللجوء إلى أنماط الغموض، فهو يعيق بأنغامه ليخبي المدلول وراء ركامات من الدوال"⁽⁶⁹⁾ تجعل قصائد الشاعر صرخة مولود جميل مساه الموروث الصوفي، وشيخته في ذلك الغموض المنحدر من جنس الحدائبة بنض روح التجريب. وهذا لسان حال شاعرنا المعاصر "عبد الله العشي" في ديوانه "مقام البوح" الذي حاك خطابه الشعري ببوح منسوج من لغة الغموض، راسما بألوان السّتر صورا تجعلنا نطلق على شعره مسمى الشعر الصوفي الغامض و المتميّز، إته من ذلك النوع المستنقز للمتلقّي والذي يجمع في التجربة الواحدة بين عناصر يصعب ربط مقوماتها الدلالية، حتى لا تصبح القصيدة تبعا لها طلاسا كلما تعددت تأويلاتها، و محاولة الوصول إلى كنهها يضاغف الاعتراف من جالياتها.

الهوامش والمراجع:

- 1- جاء في معجم لسان العرب لابن منظور أن الغموض من مادة غمض و الإغماض النوم جمع غمض وهو خلاف الواضح، ومعنى غامض: لطيف وكل ما لم يتجه لك من الأمور ويقال للرجل الجيد الرأي: قد أغمض النظر. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، مادة غمض، ج:11، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص:85.
- 2- بشير تاويريت، آليات الشعرية الحدائثية عند أدونيس، غالب الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2009، ص:33.
- 3- محمد كعوان، التأويل و خطاب الرمزية في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010، ص:213.
- 4- التجريب لغة من مادة جرب، جرب الرجل تجربة أي اختبره، و التجربة مصدر يجمع على التجارب و التجارب، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة جرب، ج1، ص: 429. فالتجريب حركة تجديدية تحريرية تقوم على نبذ السائد.
- 5- الجمالية مصدر صناعي مشتق من الجمال، و يصعب وضع مصطلح جمال تحت تعريف منطقي واضح، لأنه قيمة من قيم الوجود، التي يمكن تذوقها و ادراكها و بالتالي تتغير مفاهيمه و مصطلحاته تبعاً للتغيرات الفكرية. الجمال لغة مصدر الجميل، والفعل جمل أي حسن. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة جمل، ج:1، ص:503.
- 6- بشير تاويريت، آليات الشعرية الحدائثية عند أدونيس، ص:34.
- 7- نجد في المعجم العربي مجموعة من المصطلحات التي تدور حول فكرة الغموض منها: الابهام، اللبس، العماية أو الغزبية، كما تحفل اللغات الأجنبية بمصطلحات تشير إلى المصطلح نفسه منها: الغموض Vaguenes، العماية Aporia، الابهام Obscure، الاشتراك اللفظي Ambiguity، التضاد الدلالي Ambivalence.
- 8- بين هذا في كتابه أنماط الغموض السبعة William Empson , Seven Types of Ambiguity, Penguin Books, England, 1965.
- 9- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياها و ظواهره الفنية و المعنوية، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص:189.
- 10- نبيل راجب، موسوعة الفكر الأدبي، دار غريب، القاهرة، مصر، دط، 2002، ص:299.
- 11- عبد القاهر علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني، أسرار البلاغة، تر: هيلموت ريتز، مطبعة وزارة المعارف، إسطنبول، تركيا، دط، 1954، ص:126.

- 12- أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص:306.
- 13- إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط3، 2007، ص:115.
- 14- أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، ص306.
- 15- حازم بن محمد بن الحسين القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تخ: محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1981، ص:172.
- 16- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص:194.
- 17- عز الدين منصور، دراسات نقدية ونماذج حول بعض قضايا الشعر المعاصر، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1985، ص:129.
- 18- أدونيس علي أحمد سعيد، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، 1979، ص:124.
- 19- بشير تاويريريت، آليات الشعرية الحدائثية عند أدونيس، ص:42.
- 20- محمد الهادي الطرابلسي، من مظاهر الحدائثية في الأدب الغموض في الشعر، مجلة فصول، ع:04، م:04، القاهرة، مصر، 1984، ص:30، نقلا عن: إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ص:393.
- 21- محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1979، ص:162.
- 22- فريال جبوري غزول، شعرية الغموض، مجلة فصول، ع:03، م:04، القاهرة، مصر، 1984، ص:178 نقلا عن: إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ص:395.
- 23- عبد الحميد هيمية، الخطاب الصوفي و آليات التأويل- قراءة في الشعر المغاربي المعاصر- موفم للنشر، الجزائر، دط، 2008، ص:276.
- 24- بشير تاويريريت، آليات الشعرية الحدائثية عند أدونيس، ص:38.
- 25- ألبيريس، الاتجاهات الأدبية في القرن العشرين، تر: جورج طرايبشي، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1، 1965، ص:137، نقلا عن: عبد الحميد هيمية، الخطاب الصوفي و آليات التأويل، ص:292.

- 26- عبد الله العشي: شاعر و أكاديمي جزائري بارز، يشغل أستاذ برتبة أستاذ التعليم العالي في جامعة باتنة، من مواليد 23.03.1954، صدر له قبل مقام البوح كتاب بعنوان "زحام الخطابات" عن دار الأمل بتيزي وزو سنة 2005.
- 27- عبد الله العشي، أسئلة الشعرية - بحث في آليات الإبداع الشعري- منشورات الاختلاف- الجزائر، ط1، 2009، ص:37.
- 28- حسين مروى، مقابلة مع جريدة النداء، 27.12.1984، نقلا عن: محمد علي مقلد، الشعر و الصراع الأيديولوجي، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص:239.
- 29- نبيل راغب، موسوعة الفكر الأدبي، ص: 297.
- 30- ستانلي أدغار هايمن، النقد الأدبي و مدارسه الحديثة، تر: احسان عباس، محمود يوسف نجم، ج:2، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1981، ص:55. نقلا عن: إبراهيم رمانى، الغموض في الشعر العربي الحديث، ص:390.
- 31- محمد عبد الواحد حجازي، ظاهرة الغموض في الشعر الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2001، ص:65.
- 32- عبد الله العشي، أسئلة الشعرية، ص:37.
- 33- محمد عبد الواحد حجازي، ظاهرة الغموض في الشعر الحديث، ص:65.
- 34- عبد الله العشي، مقام البوح، جمعية الشروق الثقافية، باتنة، دط، 2000، ص:11.
- 35- المصدر نفسه، ص:12.
- 36- المصدر نفسه، ص:15.
- 37- المصدر نفسه، ص:17.
- 38- محمد كعوان، التأويل وخطاب الرمز، ص:379.
- 39- عبد الله العشي، مقام البوح، ص:22.
- 40- المصدر نفسه، ص:20.
- 41- المصدر نفسه، ص:25.
- 42- جمال حسيني يوسف، صورة النار في الشعر المعاصر- مصادرها و دلالاتها و ملامحها الفنية، دار العلم و الايمان، كفر الشيخ، مصر، ط1، 2008، ص:63.
- 43- عبد الله العشي، مقام البوح، ص:37.
- 44- المصدر نفسه، ص:38.
- 45- المصدر نفسه، ص:39.

- 46- المصدر نفسه، ص:51.
- 47- المصدر نفسه، ص:52.
- 48- المصدر نفسه، ص:55.
- 49- المصدر نفسه، ص:56.
- 50- شادية شقروش، الخطاب الشعري في ديوان مقام البوح لعبد الله العشي -دراسة سيميائية-، مذكرة لنيل درجة الماجستير في نظرية الأدب، باتنة، 2001، ص: 42.
- 51- عبد الله العشي، مقام البوح، ص:63.
- 52- المصدر نفسه، ص:73.
- 53- المصدر نفسه، ص:81.
- 54- الخميسي شرفي، استراتيجية التضاد و علاقتها بالزعة الصوفية في شعر عبد الله العشي، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر -بسكرة- ع:07، 2005، ص:267.
- 55- عبد الله العشي، مقام البوح، ص:42.
- 56- المصدر نفسه، ص:44.
- 57- المصدر نفسه، ص:43.
- 58- طلال حرب، معجم أعلام الأساطير و الخرافات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص: 158-174-203-215-279-280-291-338.
- 59- عبد الله العشي مقام البوح، ص:47.
- 60- محمد كعوان، التأويل وخطاب الرمز، ص:09.
- 61- عبد الله العشي، مقام البوح، ص: 58.
- 62- المصدر نفسه، ص:36.
- 63- محمد كعوان، التأويل وخطاب الرمز، ص:130.
- 64- عبد الله العشي، مقام البوح، ص: 86.
- 65- المصدر نفسه، ص:05.
- 66- المصدر نفسه، ص:89.
- 67- المصدر نفسه، ص:94.
- 68- المصدر نفسه، ص: 96.
- 69- عبد الله الغدائي، القصيدة و النص المضاد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، دت، ص:137، نقلا عن: شادية شقروش، الخطاب الشعري في ديوان مقام البوح، ص:67.